

رقم الدرس ٥

الجمعة ١٩-١٢-١٤٤٧هـ

شرح كتاب التوحيد

لشيخ الإسلام/ محمد بن عبد الوهاب التميمي - رحمه الله -

الملقاة بمسجد النبي - صلى الله عليه وسلم -

لفضيلة الشيخ الدكتور

محمد بن محمد المختار بن محمد بن مزيد الجكني الشنقيطي

المدرس بالحرمين الشريفين

وعضو هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية

ومفوض الإفتاء بمنطقة المدينة المنورة

حفظه الله تعالى ونفع بعلمه وغفر له ولوالديه ولجميع المسلمين

ملاحظة: هذه الدروس لم تُراجع من فضيلة الشيخ - حفظه الله -.

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قال الإمام المصنف - رحمه الله تعالى -: [المسألة العاشرة: الآيات المحكمات في سورة الإسراء؛ وفيها ثماني عشرة مسألة، بدأها الله بقوله: { لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا }، وختمها بقوله: { وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَذْخُورًا }]، ونبها الله - سبحانه - على عظم شأن هذه المسائل بقوله: { ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ }.

الشرح:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على أشرف الأنبياء والمرسلين وخيرة الله من الخلق أجمعين وعلى آله وصحبه ومن سار على سبيله ونهجه واستن بسنته إلى يوم الدين، أما بعد:

فهذه المسألة تقدم الحديث عن جزء منها، ووقفنا عند ذم الله - عز وجل - للشرك، وبيان عاقبته، فبين الله - سبحانه وتعالى - أن من أشرك به فإنه ييؤء بعظيم الخسارة في الدنيا والآخرة، وجمع الله في الشرك أمرين عظيمين، هما أشد ما يكونا على العبد في الدنيا والآخرة: **أما الأمر الأول:** فهو الذم، **وأما الأمر الثاني:** فهو الخذلان.

ولذلك بينا معنى الذم، وأن الشرك يوجب ذم صاحبه في الدنيا والآخرة، وأن الله ذم المشركين، ومن أعظم الذم ما ذمهم به سبحانه أنهم كالأنعام، بل هم أضل سبيلاً، كما قال - سبحانه وتعالى -: { لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ }.

وإذا ذم الله شيئاً فهو المذموم، فذمهم الله أنهم لم ينتفعوا بعقولهم، ولم ينتفعوا بما جعل الله من نور البصيرة في قلوبهم، فهم كالأنعام، بل هم أضل من الأنعام، وبيننا أنهم ذموا أنفسهم أيضاً حينما صاروا إلى أسوأ المال في الآخرة، كما قال تعالى حينما كُتبوا في نار جهنم، { وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ }، فذموا أنفسهم، وذموا أحوالهم التي كانوا عليها من عبادة غير الله - عز وجل - والشرك بالله - سبحانه وتعالى -.

فبيّن الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أَنَّ الشِّرْكَ ينتهي بصاحبه إلى ذم الدنيا، وذم الآخرة، وأنّ هذا الذمّ من الله الذي خلقه، بل هو يذمّ نفسه بنفسه كما بيّنّا في آية سورة الملك.

ثم إنه بيّن سبحانه أنّ الشِّرْكَ سببٌ في الخذلان، والخذلان من أعظم ما يعيش به الإنسان شقيّاً في الدنيا والآخرة، أن يكون مخدولاً من ربّه، وإذا كان العبد -وَالْعِيَاذُ بِاللّهِ- موصوفاً بالخذلان، فقد خارت قواه، وذهب عنه النفع، وجلب إلى نفسه الضرّ في دينه ودنياه وآخرته، ولذلك الذين أشركوا مع الله غيره هم أرادوا أمرين: جلب المنفعة، ودفع المضرة، فالله بيّن أنّهم يُخَذَّلُونَ في الأمرين، فإذا عبدوا غير الله، وأشركوا مع الله ما لم ينزل به سلطاناً، فإنهم لا يجدون نفعاً، بل -وَالْعِيَاذُ بِاللّهِ- يؤول إليهم الأمر بالضرّ بدل النفع: {يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُ وَمَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ * يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ}.

ليس هناك ضلالٌ أعظم من ضلال الشرك، ومن أشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً، ثم أعقبها بقوله: {يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ}، لبئس المولى، ولبئس العشير، لا ينفع ولا يضرّ، {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آعَيْنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ}،

ليست هناك حُجَّةٌ أعظم من حُجَّةِ الله على خلقه، هذا المشرك وصفه الله بأقبح الصفات، وذمّ الله الشِّرْكَ وأهله بأعظم الذمّ في الدنيا والآخرة، ووصفهم بأنهم مخدولون، هم عبدوا غير الله يلتمسون من هذا المعبود جلب الخير ودفع الشرّ، فبيّن الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أنّ الذين يعبدونهم من دونه لا يستطيعون نصر أنفسهم، ولا هم يُبْصِرُونَ، {أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ}.

هؤلاء الذين هم المشركون أرادوا جلب المصلحة، ودفع المضرة، فبيّن الله خذلانهم في الدنيا والآخرة، ولذلك حقيقة الشِّرْكَ هي عبادة الشَّيْطَانِ، الشِّرْكَ في الأساس هو عبادة الشَّيْطَانِ: {إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا لَعَنَهُ اللَّهُ}، هذا أصله.

إذاً، إذا جاءوا في الشدّة والكرب فهم غير مستغيثين بالآلهة التي يزعمون، هم مستغيثون بالشَّيْطَانِ، وإذا بالله بيّن أنّهم مخدولون من هذا الشَّيْطَانِ في الدنيا وفي الآخرة، ولذلك يقول الله هنا: {فَتَقَعْدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا}، الشَّيْطَانُ خذل عباده ومن يعبدونه في أشدّ المواطن، ولذلك يؤمّ بدرّ يَوْمِ الْفُرْقَانِ اليوم الذي

التقى فيه الجمعان، زين الشيطان لكفار قريش وعبد الأوثان، {وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ}، هم يعبدون الشيطان، فجاءهم وزين لهم الخروج، وزين لهم أن يمضوا في سبيله. هذا مثلٌ لحال ضربه الله لكل مشرك، لكنه بصورة أخرى، {فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانِ}: هنا الخذلان، {فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ}، {نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ}: أَرَهَمَ وقال: (أنتم تذهبون إلى بدر، فتسمع بكم العرب ونفعل ونفعل، فلا تزال العرب تسمع بنا وتفعل وتفعل)، يؤزهم أزا، انظروا إلى عظيم الخذلان، {فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ}، أعظم ما يكون الخذلان عند شدة الحاجة.

فبين الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أنه خذلهم، قال: {فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ}، أن يفِرَّ مَنْ ينصرك شيء، لكن أن يفِرَّ ويرأ، الله أكبر! ليس بعد هذا خذلان، تعلقت قلوبهم بمن يسؤل لهم الشيء، ثم يخذلهم وهم في أشد ما تكون الحاجة إلى النصر، ومع هذا يتبرأ منهم! {وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ}، قال ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: ((رأى جبريل والملائكة تنزل من السماء))، هذا شأن المشركين، فما شأن الموحدين؟

انظر هذا حال الشيطان الذي عبدوه من دون الله، فانظر إلى حال أولياء الرحمن، {إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَلِيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ}، حتى كيف النصر وطريقة النصر تصدر بها أوامر رب العالمين من فوق سبع سموات، ما خذل الله أوليائه.

أشد ما يكون أن الإنسان يكون في الخوف وفي القلق وينا، هذا كانوا يضربون به مثلاً لأشجع الناس، يقولون: (يركب الفرس، فإذا لقي الكتيبة لقيها ناعساً)، أي أنه لا يبالي؛ من شدة ثباته وراحته، ولذلك أبو بكر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- من قوة إيمانه ويقينه يقول للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يوم بدر: ((بعض مناشدتك لربك)).

كان حال أهل التوحيد بالثبات والإيمان، وهم ثلث أعدائهم، ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً كُتبت لهم السعادة في بطون أمهاتهم بالتوحيد، هؤلاء ما خذلوا وهم ثلث قريش في قضها وقضيضها وجمعها ورجالها، وقوم خرجوا للحرب، أعدوا للحرب عدتها، وهؤلاء خرجوا للتجارة، ولم يكن في بالهم أنهم يقاتلون، وإذا بهم تنزل عليهم السكينة، وتغشاهم الرحمة، وتثبت الأقدام، وتسد الرمية، وكان يوم

البطشة الكبرى: {يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ}، انتقم الله فوطئ ابن مسعود على صدر عدو الله أبي جهل في يوم أعز الله فيه جنده بالتوحيد.

إذا الشرك خذلان، والتوحيد لا خذلان فيه.

ومن هنا، بين الله -عز وجل- أن الشرك يخلد الشيطان فيه أوليائه في أشد المواطن، هذا في الدنيا. يُخَذَّلُونَ أيضًا في أصعب المواطن وأشدّها على المؤمن والكافر، وهي لحظة الخروج من الدنيا سكرات الموت: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ} * وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ}، هنا هؤلاء المشركون: أين الذين أشركتم به؟ أين شفعاكم؟ أين أهلككم؟ أين الذين كنتم تزعمون أنهم يُعبدون، وأنهم يُستعاث بهم، ويُستجار بهم؟ أين الأصنام؟ أين الأولياء؟ أين الأحجار؟ أين الأشجار؟ أين الأبقار؟ {وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ}، هؤلاء الشفعا الذين كنتم تقولون: (إنهم شركاء وأنداد الله -عز وجل-) تعالى الله عما يقولون، أين هم؟ {لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ}، {تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ}: هنا الخذلان، انقطع كل شيء.

لكن المؤمن: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ}، رسل من الله تنزل من فوق سبع سماوات إلى ولي الله -جل جلاله-، آمن بالله ووحدّه، وأيقن أنه سيلقى ربه، وآمن بكتبه ورسله واليوم الآخر، وأنه سيلقى ربه، فتتنزل عليه الملائكة من السماء، ومعها كفن من أكفان الجنة؛ لكي: {يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ} * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا}، اللهم إننا نسألك من فضلك.

التوحيد حينما تعلم أن الله -سبحانه وتعالى- هو إلهك وخالقك ورازقك الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلا، لا ند له ولا شريك ولا ولد ولا صاحبة، تخرج من الدنيا ولم تمر عليك لحظة صرفت شعبة من شعب هذا القلب لغير الله، فلن يخلدك الله، أبدا أهل التوحيد العكس.

أما أهل الشرك -والعياد بالله- في الحضيض، والتوحيد في أعلى العلا؛ لأن الله مع أوليائه الموحدين، كل ما كمل توحيدك كل لحظة من هذه الدنيا تصرفها عبادة لله؛ حتى يطيب لك المال، وحتى يطيب لك الحال؛ وحتى ترى من ربك ما لم يخطر لك على بال، كل لحظة من لحظاتك؛ لأنك خلقت لعبادته، خلقت لتوحيده.

الشِّرْكُ خَذْلَانٌ، ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ الْمَوْطِنَ الثَّالِثَ فِي الْخَذْلَانِ، خَذْلَانٌ فِي الدُّنْيَا فِي شِدَائِهَا، وَخَذْلَانٌ عِنْدَ الْمَوْتِ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ-، وَخَذْلَانٌ فِي جَهَنَّمَ، وَبُئْسَ الْمَصِيرُ، {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ}، قَضَاهُ مَلِكُ الْمُلُوكِ، قَضَاهُ اللَّهُ -جَلَّ جَلَالُهُ- الَّذِي يَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْهِ، وَالَّذِي يَنْفِذُ حُكْمَهُ، وَلَا يُرَدُّ قَضَاؤُهُ، وَلَا يُنْعَى عَطَاؤُهُ، {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ}، لَمَّا أَصْبَحَ فِي الْجَحِيمِ، وَكُيِّبَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ فِي الدَّرَكَاتِ، وَنَادَوْا وَاسْتَصْرَحُوا، وَرَأَوْا الْأَهْوَالَ وَالشَّدَائِدَ، مَسَّهُمُ الرَّعْبُ قَبْلَ أَنْ يَصِيبَهُمُ الْعَذَابُ، {إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ}، وَ(عَظِيمٌ) مِنْ اللَّهِ لَيْسَ بِهَيِّئَةٍ، فَمَا أَعْظَمَ خَذْلَانَ الْمُشْرِكِ إِذَا بُعِثَ فِي عَرَصَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ! {يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ}.

فَلَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ، وَقَالَ الشَّيْطَانُ، قِيلَ: إِنَّهُ يَخْطُبُ عَلَى مَنْبَرٍ مِنْ نَارٍ، {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ}، اللَّهُ أَكْبَرُ، خَذْلَانٌ، لَيْسَ أَنْ يَقُولَ: (لَا أَسْتَطِيعُ نُصْرَتَكُمْ)، بَلْ حَتَّى تَبْرَأَ مِنْهُمْ، وَلِذَلِكَ لَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّ الْمُشْرِكَ مَخْذُولٌ، فَخَذْلَانٌ هُوَ الْخَذْلَانُ، لَنْ تَسْمَعَ أَذْنُكَ وَلَنْ تَرَى عَيْنُكَ خَذْلَانًا أَعْظَمَ مِنْ خَذْلَانِ الْمُشْرِكِ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ-، الشِّرْكُ بِلَاءٌ عَظِيمٌ، وَلِذَلِكَ الْمُؤْمِنُ الْمَوْفَّقُ السَّعِيدُ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ، وَيَعْلَمُ أَنَّ الْأَمْرَ جَدُّ لَا هَزْلَ فِيهِ: {إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ * وَمَا هُوَ بِأَهْزَلٍ}، وَحَقٌّ لَا بَاطِلَ مَعَهُ، مَا خُلِقْنَا إِلَّا مِنْ أَجْلِ هَذَا الْأَصْلِ الْعَظِيمِ، تَوْحِيدُ اللَّهِ، وَمَا خُلِقْنَا إِلَّا مِنْ أَجْلِ أَنْ نَفْرِدَهُ بِالْعِبَادَةِ، مَهْمَا زَيْنَ الْمَزِينُونَ، وَأَرْجَفَ الْمَرْجَفُونَ، وَحَاحِلُوا أَنْ يَقُولُوا: (إِنَّ هَذَا الشِّرْكَ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، هَؤُلَاءِ شَفَعَاءُ، هَؤُلَاءِ وَسَطَاءُ، هَؤُلَاءِ مُقَامُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ)، لَا تَشْرِكْ مَعَ اللَّهِ أَحَدًا؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَحِبَّ فِي هَذَا الْأَمْرِ صِفَوْتَهُ مِنْ خَلْقِهِ وَهُمْ الرُّسُلُ، وَلِذَلِكَ خَاطَبَ نَبِيَّهَ بِهَذَا الْخُطَابِ: {لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا}، وَإِذَا وَصَفَ اللَّهُ الشَّيْءَ بِالْخَذْلَانِ فَهُوَ الْخَذْلَانُ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: (إِنَّ اللَّهَ وَجَّهَ الْخُطَابَ لِنَبِيِّهِ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، لَكِنِ الْمَعْنَى بِهِ جَمِيعُ الْمُكَلَّفِينَ مِنَ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-)، فَهَذَا لَيْسَ خَاصًّا بِالنَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، إِنَّمَا الْخُطَابُ لِلأُمَّةِ جَمْعًا: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، وَلَا تَشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ فَسَيَقْعُدُ مَذْمُومًا مَخْذُولًا.

وهذا الخَذْلَانُ حَتَّى فِي تَرْوِيقِ الشِّرْكِ وَتَسْوِيقِهِ، وَادْعَاءِ أَنَّهُ حَقٌّ، تَجِدُ صَاحِبَهُ مَخْذُولًا مَهْمَا كَانَ عِنْدَهُ مِنْ حَسَنِ الْعِبَارَةِ وَجَمِيلِ الْكَلَامِ، وَلَيْسَ بِكَلَامٍ جَمِيلٍ، وَأَيُّ جَمَالٍ فِي كَلَامٍ يَصْرِفُ حَقَّ اللَّهِ لِغَيْرِ اللَّهِ؟! وَأَيُّ جَمَالٍ فِي الظُّلْمِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الظُّلْمِ!

ولذلك لما وصف الله الشِّركَ بأنه طريقٌ إلى الدِّمِّ والخذلان، هذا من أعظم التحذير.
ولذلك الإمام المجدِّد -رَحِمَهُ اللهُ- أشار إلى هذه الآية الكريمة، ونَبَّهَ عليها -رَحِمَهُ اللهُ-؛ لكي يبيِّنَ خطرَ
الشِّركِ بالله -عَزَّ وَجَلَّ- وعواقبه الوخيمة.

انظر كيف جمع الله مصائب الشِّركِ كُلِّها في الدنيا والآخرة: {مَذْمُومًا مَخْذُولًا}.
وهذا أمرٌ مستقرٌّ عند العقلاء، وكلٌّ من رزقه الله عقلاً وفطرةً سويةً يدرك -نسأل الله السلامة والعافية-
أنه إذا سأل الإنسان شيئاً أو طلب شيئاً أو أمَّلَ شيئاً في شيءٍ، ولم يستطع ذلك الشيءُ أن يقومَ بما
أمَّله فيه، فإنَّ هذا -مثلما يقولون-: (جرحٌ في القلب)، فكيف إذا كان هذا في أعظم الأشياء، وهو
عبادة الله -جَلَّ جَلَالُهُ-، والإشراك به؟!!

ولذلك ذكر الشعراء وذكر العلماء نثرًا وشعرًا تألم القلوب وعظم الحسرة حينما يُخْذَلُ الإنسان، يُؤْمَلُ في
شيءٍ وينقطع أمُّله، ويرجو في شيءٍ، ويخيَّبُ رجاؤه، ولذلك الله وحده الذي تنقطعُ إليه الآمالُ، ولا
يمكنُ أن يخيبَ فيه الرجاء -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، ونسأل الله بعزته وجلاله وعظمته وكماله أن يسلِّمنا من
هذا البلاء العظيم.

قال -رَحِمَهُ اللهُ-: [بَدَأَهَا بِقَوْلِهِ: {لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا}]: بدأ الله هذه
الوصايا كلها بالتحذير من الشرك.

والمصنِّفُ الإمامُ المجدِّد -رَحِمَهُ اللهُ- أَخَّرَ هذه الآية، وقَدَّمَ ما قبلها من الآياتِ الأَمْرَةَ بالتوحيد، ثم أتبعها
بهذه الآيات التي تبيِّنُ سوءَ العاقبة في الشرك، وبيَّنَا وجهَ ذلك، وجمالَ هذا الترتيب البديع؛ لأنَّ الأصلَ
أن تأمرَ بالعبادة، وتنهاه بعد ذلك أن يشركَ بالله شيئاً.

قال -رَحِمَهُ اللهُ-: [بَدَأَهَا بِقَوْلِهِ: {لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا}، وختمها بقوله:
وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَذْهُورًا}].

الله أكبر! هذه المسائلُ التي يذكرها الإمامُ المجدِّد -رَحِمَهُ اللهُ- بعد ذكره للآيات والنصوص، قلنا: مسائلٌ
مهمةٌ جدًّا، وفي بعض الأحيان تتضمنُ معانٍ، حتى إنَّ بعضها قد تكونُ كالتكملة لما ذكره في النصوص،
وهذا الحقيقةُ أشياءٌ موجودةٌ في (كتاب التوحيد) تدلُّ على أنَّ الإمامَ المجدِّد -رَحِمَهُ اللهُ- قد ألَمَّ بكثيرٍ
مما يستشهدُ به من الآيات، في المسائل هنا، وذكر قوله تعالى: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} هذه
الآية التي أوردها، أوردها في الأوامر.

وجاء في المسائل وقال: إن هذه الأوامر سبقها قوله: {لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ}، وختمها بقوله: {وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا}، هذه الخاتمة، فجاء بالبداية، وجاء بالنهاية، واستفاد من النص كاملاً - رَحِمَهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ -.

فختمها الله بقوله: {وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا}، {مَلُومًا مَدْحُورًا}: اللوم والعدل لا يكون إلا على الخطأ، الإنسان إذا أخطأ لآله اللائمون، ويتألم من اللوم، والله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بَيِّنٌ أَنَّ الشِّرْكَ فِيهِ اللُّومُ، وفيه - وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ - أَنَّ صاحبه يدحر في جهنم، {فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا}: اللوم لامتهم الملائكة، ولذلك: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا}، تلومهم وهم يساقون إلى جهنم ويؤززون، وتلومهم وهم يتقاطرون فيها، {فَكُذِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَصْلَنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ * فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، اللهم اجعلنا من المؤمنين.

يكبكون في نار جهنم، ويتلاومون، وأيضا تلومهم ملائكة الرحمن، ويلوم بعضهم بعضا على ما فرطوا في جنب الله، ويلوم الواحد منهم نفسه.

فإذا اللوم على أكمل ما يكون اللوم، ولذلك من أعظم ما يكون أن يلوم الإنسان نفسه: {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} لام نفسه، فقال: {يَا حَسْرَتًا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ}، يا حسرتاه، هل ينفع حينها أن يتحسّر؟ هل هذه الحسرة وهل هذه الندامة وهذه الملامة لنفسه تنفعه؟ انقطعت المعاذير، لا هم يستعتبون، {وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ}، شيء من الخسارة، {خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا}، وإذا قال الله: (خسران) فهو الخسران.

يا عبد الله، اقرأ كتاب الله بتأمل، وصوّر نفسك ناظراً لهذه المشاهد، صوّر نفسك لهذا العبد الذي وقف على الشجر والحجر والقبر والولي الصالح والطالح والآلهة، صوّر نفسك وهو يدعو ويستغيث، ويظن أنهم ينفعون، وأنهم يشفعون، وأنهم ينقذون، و(يا فلان نظرة، يا فلان خذ بيدي في معادي، يا فلان اغثنا، يا فلان)، كل الآمال هذه معلقة على خواء، معلقة على فناء، ليس لها حقيقة.

ثم انظر إلى قلب هذا المسكين، وليس بمسكين، حينما يتعلق بالهة يستنصر بها، وهي نفسها تُنصر منه، {لَا يَسْتَطِيعُونَ هُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ} وهذا من قديم يعني كانت المعابد التي تُعبد فيها الآلهة والأصنام، إذا جاءتها العوارض التي ينشئها الله بقدرته وعزته، انظر كيف الله يُنبئهم، ولا يتنبهون،

هم منتبهون: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ}، ولكنهم يكابرون ويتعالون، تأتي الرياح، وتأتي الأمطار على ما يسمى بالمعابد، فإذا جاء السيل أخذوا معبودهم وإلههم فوق الدواب، يفرون به من السيل، مسكين هذا الإله! يخافون أن يسقط عليه السقف من المطر، أو يحمل ماء البحر أو ماء النهر؟ لا إله إلا الله! {وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا}، {قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ}، هو يحمل هذا الإله الذي يستغيث به، يحمله معه، وفي بعض المقاطع رأيتها بعيني على الموتى، الذي يسمى الدباب، أحدهم حامل إلهه يفتر به من الزلزال، المعبد انكسر، مسكين الإله هذا! يخشى أن يسقط عليه! {فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ}، هذا الذي تعبده؟! هذا الذي تستغيث به؟! ولذلك: {ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا}، {ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا}، الضلال كله في الشرك، {هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا}، اللهم إنا نعوذ بك من طمس البصيرة، لكن الحجة عليهم قائمة، كلهم أقام الله عليهم الحجة في عالم الذر: {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا}، ولن يخرجوا من هذه الدنيا إلا وقد أعذر الله إليهم -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

ومن هنا، تجد أن ما ذكره الله في صفة هذا الأمر القبيح الشنيع، وصفه بأشد الصفات، لكن الله أصدق القائلين، تأتي إلى الواقع فتجده حقيقة قائمة أمام عينيك، وتحذاهم الله -عَزَّ وَجَلَّ-: {فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، ولذلك وصفهم الله أنهم لا يسمعون، وأنهم لا يبصرون، وأنهم لا يعقلون، وهؤلاء الذين يعبدونهم يعلمون هذا، ولذلك لما قال: {لَا يَسْتَطِيعُونَ هُمُ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ}، فهذا غاية -نسأل الله السلامة والعافية- في انطماس البصيرة، و-نسأل الله السلامة والعافية- الإعراض عن الله والكفر بالله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: {قَتَلَ الْإِنْسَانُ}، قيل: الإنسان في الآية الكافر، {قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ}، وقيل: جنس الإنسان، فهي في المشرك بالكفر الأكبر، وفيما دونه وهو المسلم، ما دونه، الكفر دون الكفر، فهذا حال الأشقياء أنهم يكفرون بالله -عَزَّ وَجَلَّ-، لكن نفوسهم تعلم من هو الله الذي خلق وشق السمع والبصر: {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}.

لما ذكر الله خذلان المشركين وخذلان الشرك لأهله، اقرأ آيات القرآن، وتأمل فيها، فتجد التوحيد وأهل التوحيد على النقيض.

نوح نادى ربه: {أَيُّ مَغْلُوبٍ فَانْتَصِرَ} * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ}، رب علم الأشياء، وقدر المقادير، ونسخ الآجال والأعمار، وكل شيء عنده بمقدار، تعبد ربًا هو الرب لا إله إلا هو.

{وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ}، لاحظ: {نَادَى}، {فَاسْتَجَبْنَا}.

هناك يقول: {أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ}.

وتحداهم الله أن يسمعوا الدعاء: {لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ}.
فهذا الذي تدعوه وتوحده -جلَّ جلاله وتقدَّست أسمائه-، انظر إلى الموحدين وصفوة الموحدين، فهذا نبي الله أيوب لما ذكر الله قصص الأنبياء قال: أنهم نادوه، فسمع النداء، وأجاب الدعاء، وكشف الضر والبلاء، سبحانه لا إله إلا هو، هو المعبود، ولا يُعبد سواه.

{وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ}: ربّه الذي ربّه بالنعيم، لم ينادِ الشجر ولا الحجر ولا القبر ولا الأولياء ولا غيرهم، نادى ربّه؛ لأنه يضرب لنا المثل، ولذلك قال: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ}.

{إِذْ نَادَى رَبَّهُ}: تنادي ربك، ما تنادي غيره، {إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَيُّ مَسْنِي الضَّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} * {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ}، بعض الأئمة في التفسير يقول: (الفاء تشير إلى سرعة الإجابة)، {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ}، انظر كلها نداء، {فَنَادَى}، {فَاسْتَجَبْنَا}، هنا {نَادَى رَبَّهُ}.

{فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ}: توحيد، {سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} * {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ}، ثم بعدها: {وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}، الموحدين، أي من ناداني بالتوحيد سأجيب نداءه كما استجبت لأيوب، وكما استجبت لذي النون.

{وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ}، نادى ربّه وقد رقَّ عظمه، وشاب شعره، ووهن وخارت قواه، لكنه قال: {لَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا}، {لَمْ أَكُنْ}: نفى مسلط على الفعل الذي يدل على الدوام والاستمرار، ما كنت ولن أكون ولن يكون أحد يدعو ربّه بإيمان شقيًّا أبدًا، ماذا قال الله؟ {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ}.

أيوب قال: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ}، ذكرى للموحدين، هناك الشرك خذلان، التوحيد عطايا ومنح وفوز، إذا كنت مع الله كان الله معك، {وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ}، فالله مع الموحدين، {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}، اللهم اجعلنا من المتقين، واجعلنا من المحسنين.

موسى -عليه السلام- قال له ربّه، انظر التوحيد، خذلائك الشرك، وانظر كيف التوحيد، {قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}، تعبد ربّاً سمياً بصيراً سبحانه -جلّ جلاله-، قال: {إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}، انظر إلى الأنبياء، أكمل الناس توحيداً الأنبياء -صلوات الله والسلام عليهم-، ما قصّ الله، لا تقرأ قصص القرآن هكذا، اقرأها بتدبر: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى}، هذا الحديث يُريّ فيك أعظم الأشياء: التوحيد، والإيمان.

نادى موسى -عليه السلام- قال الله له: {إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}، فلما وقف أمام البحر: {قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا} بصيغة التوكيد، {إِنَّا لَمُدْرِكُونَ} اللام، التعبير بفعل الإدراك، عدوّننا سيقضي علينا، {قَالَ كَلَّا} التوحيد، (كَلَّا)؛ لأنه قال: {إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}، انظر كم مرّة تقرأ آية طه، وانظر إلى آية الشعراء، اربط، انظر، اقرأ كلام الله بتمعّن وتدبر، والله لتجدنّ في كلام الله ما لم يخطر لك على بال، {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ}، اللهم اجعلنا منهم.

{قَالَ كَلَّا}، موسى، قالوا: {إِنَّا لَمُدْرِكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ}، ما قال: {إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}، قال: {كَلَّا}، قالوا: {لَمُدْرِكُونَ * قَالَ كَلَّا}، الموت أمامه، وعدوه من ورائه، {قَالَ كَلَّا}، لا يمكن أبداً، {كَلَّا إِنَّ مَعِيَ}، أنتم لو {إِنَّا لَمُدْرِكُونَ}، قال: {إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}، {فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ}، ما خذله الله، بحر أمواج تتلاطم، فإذا بها كالجبال، أرض دحضة مزلة، لو جئت إلى طرف الساحل ربما يخور فيه البعير، الطين والدحض يذهب فيه الإنسان، ويذهب فيه الحيوان، في طرفه عين ينقلب، {فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى}، لا تخاف، أولياء الله دائماً معهم من الله النصرة والتأييد والحفظ والمعونة بالتوحيد.

ولذلك لما ألقى السحرة قال: {أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ}، {فَأَوْجَسَ} موسى ماذا حصل له؟ قال: {فَأَوْجَسَ}، أوجس بداية هذا الخوف الطبيعي، حباً وعصياً، فجأة انقلبت حيات عظيمة، هذا من طبيعة البشر أنه إذا رآه يحصل عنده الخوف، {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ} فقط، {وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}، {وَقَالُوا بَعْرَةٌ

فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِبُونَ}، ذهبت عزّة فرعون وعزّة الشياطين أمام عظمة ربّ العالمين، أمام التوحيد، أمام الإيمان، أمام اليقين.

فالخذلان لأهل الشرك، وعكسه ما يكون من التأييد والنصرة والحفظ والحرص لأهل التوحيد. أهل الشرك يكون لهم الخذلان، وأما أهل التوحيد فيكون لهم النصرة والتأييد والثبات؛ لأنّ الله معهم، لكن بتوفيق الله بالإخلاص والتوحيد والصدق معه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

كلما تقرأ في قصص القرآن تأمل التوحيد وآثاره، تأمل التوحيد وثماره، تأمل التوحيد، ولذلك هذا التوحيد لا يُخَذَّلُ به المؤمن، بل يطيب حيّاً وميتاً، التَّوْحِيدُ تطيب به حيّاً وميتاً: {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ}، {وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ}، فلما هُودُوا إلى طيب الأقوال والأعمال، وحققوا التوحيد، نادتهم الملائكة: {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ}، يومُ الجزاء ويومُ العطاء وحسنُ العاقب.

فمن أشرك بالله -عَزَّ وَجَلَّ- وصف الله الشرك بهاتين الصفتين المذمومتين القبيحتين، ووالله لن تفارق مشركاً أبداً، أنه في الدنيا مدمومٌ ومخدولٌ، وفي الآخرة ملومٌ مدحورٌ.

الدَّحْرُ في لغة العرب: الدفع، قيل: الدفع بشدةٍ، وقيل: الدفع بشدةٍ مع المهانة، {اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا} هذا إبليس وشياطينُ السماء الذين يسترقون السَّمْعَ: {دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ}.

فمن أشرك بالله عاقبته أنه يُلقى في جهنم، هذا الإلقاء دائماً في المهانة، يقول: "ألقي الشيء" يُقْصَدُ بها تفاهةُ هذا الشيء وحقارته، وهؤلاء إذا جاءوا إلى جهنم -نسأل الله السلامة والعافية- هولٌ مطلعها، ولذلك في عرصات يوم القيامة يُرْوَعُونَ بها، يُؤْتَى بها معها سبعون ألف زمام، مع كلِّ زمام سبعون ألف من الملائكة، في يومٍ هو من أشدّ الأيام هولاً، يومٌ لا يومٌ قبله، ولا يومٌ مثله، يومٌ هو آخر الأيام، وهذا اليومُ العظيم أخبر الله عن مآل المشركين فيه، فإنهم يُدْعَوْنَ إلى نار جهنم دعاءً، فهذه صورةٌ من صور المهانة، ومنها سحبهم على وجوههم: {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ}، اللهم إِنَّا نعوذُ من عذابك وسخطك وعقابك.

فهذه المآلات السيئة، قال الله -عَزَّ وَجَلَّ- عن المشرك الذي وصفه بأنه خسر ميزانه: {فَأَمَّهُ هَآوِيَةٌ}، {فَأَمَّهُ} قيل: أمُّه ما يقصده، "أم الشيء": إذا قصده.

تَيَمَّمْتُهَا مِنْ أَذْرَعَاتِ وَأَهْلُهَا بِيَثْرِبَ أَذْنَى دَارِهَا نَظَرَ عَلِي

فيقول: "أم الشيء": إذا قصده، {فَأَمَّهُ هَآوِيَةٌ} يعني نهايته أنه إلى الهاوية.

وقيل: {فَأُمُّهُ} أنه يُلقى على أم دماغه، أسوأ ما يكون في سقوط الإنسان أن يسقط على أم دماغه، أم الدماغ هذه إذا سقط عليها بعض الأحيان يموت مباشرة، وبعض الأحيان يصبح كالمجنون، وربما يصيبه حتى لو نجا يصبح معه لوثة، حبان بن منقذ، حديث الصحيحين: ((أَنَّهُ كَانَ بِهِ نَقْصٌ فِي عَقْلِهِ بِأُمُومَةٍ))، يعني ضُرب على أم رأسه، قال له: ((إِذَا ابْتَعْتَ فَقُلْ: لَا خَلَابَةَ، وَلِي الْخِيَارُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ))؛ لأنه ما عنده استيعاب.

فهؤلاء يُلقون على أم رؤوسهم، **{فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ}**، لكن على أم رؤوسها، ولو سقط على شيءٍ عادٍ، لكن أن يسقط على نارٍ تُلظى أمرٌ عظيمٌ، ولذلك قال تعالى: **{فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ}**، تُلقى: يقذف -نسأل الله السلامة والعافية-، الشَّقِيُّ الذي أشرك بالله، وعبد مع الله غيره.

ولذلك ذكر الإمام المجدد هذا؛ لكي نخاف الشِّرك، كلُّ آيةٍ قف معها، وانظر تفسيرها ومعانيها؛ حتى تعرف ما هو التوحيد، وما هو الشرك، فتطيع الله بتوحيده، وتتقرب إلى الله باجتناّب الشرك، وتخافه على نفسك، وتخافه على غيرك، هكذا كان العلماء والأئمة والناصحون، لم يخافوا على أمة محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ولم يخف النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- على أُمته شيئاً أعظم من الشرك بالله -عَزَّ وَجَلَّ-، ولذلك هذه الآيات ذكرها الله تنبيهاً وبياناً لخطر الشرك، وعظم أمره.

قال -رَحِمَهُ اللهُ-: **{وَحْتَمَهَا بِقَوْلِهِ: {وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا}}**، **{مَلُومًا مَدْحُورًا}**: والدحر -ذكرنا- أنهم يُدفعون، يُدفعون لماذا؟ لأنه الذي يرى النار يرجع، ما يريدون يذهبون، لكن ما فيه، ما يستطيع أن يردَّ أمر الله، ولا يستطيع أن يفرّ: **{كَأَلَا لَا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ}**، **{إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى}**، ما فيه محيصٌ، ما فيه مفرٌّ: **{اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّלَجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ}** هذا اليوم هو آخر الأيام، ما بعده يوم: إما إلى سعادة، وإما إلى شقاء، ما فيه وسطٌ بين الاثنين، اللهم ارحمنا برحمتك، والطف بنا بلطفك. **{فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا}**: فالدحر أنه يُدفع إلى نار جهنم؛ لأنه لا يريد أن يُلقى فيها.

[وَبَّهْنَا اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - عَلَى عَظَمِ شَأْنِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ بِقَوْلِهِ: {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ}].

الشرح:

-رَحِمَهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ-، انْظُرْ كَيْفَ فِي الْمَسَائِلِ يَأْتِي بِأَشْيَاءَ، اخْتَارَ نَصُوصًا مِنَ الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ، رَتَّبَهَا، أَدْعَى فِي تَرْتِيبِهَا فِي مَعَانِيهَا الْمُسْتَنْبَطَةِ مِنْهَا، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَظَرَ إِلَى الْآيَاتِ، نَظَرَ إِلَى سِيَاقِهَا وَسَبَاقِهَا، نَظَرَ إِلَى مَضْمُونِهَا، نَظَرَ، تَفَهَّمَ التَّوْحِيدَ، لَيْسَتْ الْقَضِيَّةُ أَنْ تَأْتِيَ وَتَقْرَأَ الْآيَةَ وَدَلَّتْ عَلَى كَذَا، هَذَا حَسَنٌ، وَأَحْسَنُ مِنْهُ أَنْ تَعْقَلَ أَنَّ هَذَا كِتَابٌ عَظِيمٌ، كَلَامُ اللَّهِ حِكْمَةٌ: {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ}، أَوْحَاهُ اللَّهُ -جَلَّ جَلَالُهُ-، فَرَفَعَ هَذِهِ الْأُمَّةَ مِنَ الْحَضِيضِ إِلَى الْعُلُوِّ، فَسَادَتْ وَعَزَّتْ بِالتَّوْحِيدِ، بِفَضْلِهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، ثُمَّ بِالتَّوْحِيدِ، الْحِكْمَةُ الَّتِي أَحْكَمَ اللَّهُ بِهَا الْأُمُورَ، وَأَحْكَمَ اللَّهُ بِهَا الْمَسَائِلَ، وَبَيَّنَّ اللَّهُ بِهَا كُلَّ شَيْءٍ: {وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا}، {وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ}.

{ذَلِكَ}: الْعَرَبُ تَقُولُ: (ذَا)، وَتَقُولُ: (ذَاكَ)، وَتَقُولُ: (ذَلِكَ)، {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ} إِنَّهُ وَحْيٌ مُنَزَّلٌ مِنَ السَّمَاءِ، {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى}.
{ذَلِكَ}: اسْمُ الْإِشَارَةِ لِلْبَعِيدِ، إِذَا جَاءَ فِي الْمَعَانِي إِشَارَةٌ إِلَى الْعُلُوِّ وَارْتِفَاعِ الْمَنْزِلَةِ، {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ}، مَا قَالَ: (هَذَا الْكِتَابُ)، مَعَ أَنَّهُ قَالَ: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ}، لَكِنْ تَارَةً يَعْبرُ بِهَذَا، وَتَارَةً يَعْبرُ بِذَلِكَ عَلَى حَسَبِ السِّيَاقِ وَالسَّبَاقِ.

{ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ}: انْظُرْ كَيْفَ الْإِمَامُ الْمُجَدِّدُ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ ذَكَرَ هَذِهِ الْآيَاتِ، فَأَمَرَ بِالْأُمُورِ، وَنَهَى عَنِ الْمُنْهَى، ثُمَّ بَيَّنَّ وَبَّهَ عَلَى أَنَّ الَّذِي أُمِرَ بِهِ هُوَ الْأَمْرُ، وَأَنَّ الَّذِي نُهِيَ عَنْهُ أَنَّهُ أَمْرٌ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَنْتَبَهَ لَهُ الْمَوْفُوقُ، وَلِذَلِكَ دَائِمًا أُمُورُ التَّوْحِيدِ هِيَ أَعْظَمُ الْأُمُورِ، وَأُمُورُ الشَّرْكِ هِيَ أَعْظَمُ الْأُمُورِ، الْأَوَّلُ: التَّوْحِيدُ أَعْظَمُ الْأُمُورِ فِي الْأَوَامِرِ، وَالثَّانِي: أَعْظَمُ الْأُمُورِ فِي النَّوَاهِي، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَقْصِدُهُ الْمُصَنِّفُ، أَنَّهُ جَاءَ فِي بَدَايَةِ (كِتَابِ التَّوْحِيدِ)؛ لَكِي يَجْعَلَكَ تَشْعُرُ مَا هُوَ التَّوْحِيدُ، وَمَا هُوَ الشَّرْكَ، الْأَوَّلُ مَدْحًا، وَالثَّانِي ذَمًّا.

قال -رَحِمَهُ اللهُ-: [الحادية عشرة: آية سورة النساء التي تُسمى (آية الحقوق العشرة)، بدأها الله تعالى بقوله: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}].

الشرح:

أشار -رَحِمَهُ اللهُ- إلى هذه الآية الكريمة التي ذكرها في قوله: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}، وتسمى بـ(آية الحقوق)؛ لأنها اشتملت على بيان حقوق القريب والغريب، وبيّنت فيها الحقوق المرتبة، فابتدأها الله -عَزَّ وَجَلَّ- ببيان حقه في توحيدهِ وإفراده بالعبادة، وأنه سبحانه هو المستحق لذلك، {وَاعْبُدُوا اللَّهَ}، ولذلك أوّل أمرٍ في القرآن هو هذا الأمر، أوّل أمرٍ في كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ-: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ}.

فهذه الآية الكريمة اشتملت على قوله -جَلَّ جَلَالُهُ-: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}، فهؤلاء الذين ذكرهم الله -عَزَّ وَجَلَّ- من أصحاب الحقوق عشرة، ابتداءً بحقه، وهذا موضع الشاهد، انظر كيف المصنّف يقول: (إنها آية الحقوق)، ثم قال: (آية الحقوق العشرة)، معناه أنّ هذه الحقوق مختلفة، وإذا كانت آية حقوق، فإياها الموفّق، انظر كيف ربّها الله، فبدأ أوّل ما بدأ بتوحيده، وأوّل ما بدأ بالتوحيد القائم على النفي والإثبات: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}، معناه أنّ حقّ الله أن نوحده، وحقّ الله أن لا نشرك به شيئاً، وأنّ هذا حقّ مقدّم على جميع الحقوق، وهو توحيدُ الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وأنّ النهي مقدّم على جميع المنهيات، وهو الشّرك بالله -عَزَّ وَجَلَّ-.

ومن قرأ (كتاب التوحيد)، وعرف ما هو التوحيد، لماذا نحنُ نستخدمُ أسلوبَ التفصيل؟ وإلا جرت عادةُ المشايخ أنهم يشرحون ويمشون في الكتب، وهذا منهجٌ سيّئٌ، أنهم يأتون على أكثر من الآيات، لكن حينما ندقّق في دلائل الآيات التي اختارها المصنّف، ندرك أشياءً مهمّةً، وهي التي يقصدها المصنّف.

والمشايخ والعلماء قد يبنون على كون الذي يقرأ من طلبة العلم ملثمٌ بهذه الأشياء.

لكن نجعل درسنا حتى والعامّة يستفيدون، وكلّنا عوامّ، نستفيد من التفصيل؛ لأننا إذا فصلنا أدركنا أهمية التوحيد في عبادة الله، وخطر الشرك، ولذلك من يأمر بالتوحيد فهو أنصح العباد لعباد الله، ولذلك كانت وظيفة الرسل وأتباع الرسل، ومن ينهى عن الشرك فإنه أنصح عباد الله لعباد الله، هذا الذي ينهى عن صرف حق الله لغير الله، هذا هو الناصح، لذلك قالت رسل الله: {إِنِّي لَكُمْ لَمِنَ النَّاصِحِينَ}، أعظم نصيحة في دين الله -عزّ وجلّ- أن تأمر بالتوحيد، وأعظم نصيحة بعد الأمر بالتوحيد النهي عن الشرك، ولذلك لو أنّ الإنسان أفنى عمره فيه لم يُعَبْ، بل هذا الذي من أجله خلّقنا، ومن أجله أوجدنا الله -عزّ وجلّ-.

فهذه آيات الحقوق ابتدأها الله بتوحيده، والنهي عن الشرك، ثم تبيّن بعد ذلك بأمره بالوالدين إحساناً، ثم بذى القربى واليتامى والمساكين.

بذى القربى، فبدأ بعد برّ الوالدين صلة الرحم، ولذلك كلّ آية فيها أمرٌ بحقوق، فاحفظ هذه الأوامر، وانظر إلى ترتيب الله لها، فإنّ الله ربّها مراعاةً للحقّ فيها، ولذلك قدّم الوالدين على ذى القربى؛ لأنه ما فيه واحدٌ يبرّ خالته، ويعقّ أمّه، هذا ليس في دين الله، إنما يبرّ أمّه، ويصلّ خالته، {قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}: أي حقّاً لا يُنقصُ عنه ولا يُزادُ عليه.

فلذلك بدأ بحقه، ثم بالوالدين، ثم بذى القربى، ثم باليتامى والمساكين، اليتيم: الذي لا أب له ولا أمّ، فلما بدأ بالغرباء قدّمه.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرُك وأتوبُ إليك.